جماليات الخطاب في أدب الأطفال
مقاربة في الرؤية والتّشكيل

د. شادلي عمر
المركز الجامعي بآفلو.

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى بيان أهمية أدب الأطفال في محاكاة هذا الجسد العقيم، والارتقاء به ليكون ذا عقل خلاق. وهذا جلي من خلال المقاربة التي تمسّ الرؤية الاستشرافية مراعية العمل الإبداعي لكونه يحمل أيقونات معرفية من القصص بداية من الحكاية التي تحمل في ثناياها بعد تعليمي. وبما أنّ للمخيال من أهمية في القصص الحكائي أردنا أن نقف على بعض النّصوص الحكائية لما فيها من مغزى علمي أخلاقي هادف يقتفي من أثره الطفل المغزى، وهذا يتمّ بعد أن نصّرح بخياله مّما يكسبهم القدرة على التفكير والابتكار والإبداع الخلاق، ولذلك يعتبر الخيال دافع يكشف نتيجة تملك عقولهم القدرة على محدودية الواقع.

Abstract:

This paper seeks to demonstrate the importance of children's literature in the simulation of this sterile body and to make it a creative mind. This is evident in the approach that touches the prospective vision، taking into account the creative work that carries the icons of the stories، especially the stories that have an educational purpose. Since the imagination is of importance in the stories of history، we aim to study some of the texts of history thanks to the moral significance of the desired scientific trace of the meaning of the child. And this can be done after we declare his imagination which gives him the ability to think، innovate and create. The imagination is a revealing motive of the result in the limited reality.

Keywords: children' s littérature. Imagination. Vision. Configuration. Story.

I. تحديد ماهية المفاهيم والمصطلحات :

توطئة:

انطلاقا من مقولة "ابن خلدون" التي يرى فيها بأنّ الطفل ورقة بيضاء والمجتمع يخط عليها، فهو هنا ينطلق من أن أي قلم كان نوعه، لا بدّ وأن يؤثر، ويمكن أن يلطخ، كما يمكن أن يكتب عليه أجمل المقالات التعلمية والتقويمية، فالطفل هنا هو بمثابة الغصن الذي يمكننا أن نقومه خلافا لّلذي اشتدّ غصنه.

ولذلك يبدو لنا أنّ التنشئة الاجتماعية لهذا الرعيل الأوّل من الأطفال وتتبعهم في رحلة ما من المراحل العمرية، فتصبح هذه الشتلات من فلذات الأكباد شجرة مقومة بإذن ربها أصلها ثابت وفرعها في السماء، فالأصل تربيته والفرع هو المخيال الفنّي الذي ينشق منه أدبه ومعرفته الخاصة.

وبما أنّ المقولة التي تقول وحدة من ليس شاعر الذي ينظر إلى الوردة التي تنبت من الجرح، لذلك شبه هذه الأكبا بالورود التي انسقت بماء الورد فصارت زهرا مثمرا، ولم تمت في ريعان بنائها، فتموت فيهم رؤية الجمال وبعد التحليل، ويصبح عديمي الإحساس بليدي التطور منهزمي الذات، ومنه فإنّ:" ثقافة الأطفال تنفرد بخصائص أخرى منها قيم ومعايير وعادات.(1)..وغيرها، كلها تتشاكل في بناء قيم الطفل وتنمية مخياله المعرفي، حتّى يستطيع أن يقارب النص بفكره وعقله الخاص، لكن برؤيته الخاصة التي ينطلق منها في مصادره التي نراها نحن صغيرة في نظره، في حين هي جديرة هذه بالمعرفة لخلافه.

وبالرغم من كل هذا إلا أننا نجد الجهود كانت متكاثفة في تقريب المعلومة للطفل من خلال تعدد المفاهيم والآراء، وتكوين أدب خاص بالطفل سواء شعرا أو نثرا، قصة أو حكاية، وكلها لها هدف خاص هو توعية الطفل وتوسيع مخياله المعرفي، حتّى يتسع عقله إلى النور، وقد حاول في هذا المجال كلّ الأدباء العرب رغم أنّ الإرهاصات الأوّلى كانت عند الغرب من قصص لافونتين (Lafontaine)، و بيديا(Bedia) ما جرى في أدب الأطفال عند الهنود، ويضاف إليها جهود "عبد المالك مرتاض" في قصة النقاط والخط، و"نجد الكيلاني"، وقصص "أحمد شوقي"، وما جاء في قصصه على ألسنة الحيوانات، مّما عرج عنه "ابن الجوزي" في كتابه (الأذكياء)، ولعلنا نجد هذه القصص والأعمال الأدبية الموجهة للأطفال كانت نابعة من رؤية استشراقية لما يتلاحم مع فكر الطفل هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى كانت تقارب هذه القصص كذلك من ناحية يمتاز بها أدب الأطفال تمنحه رسائل مشفرة يستخلص منها الطفل دروسا قيمة تفيده ويتعلم منها في الواقع، إذ أنّ كل من الصفة والتجربة تمتزجان بالخيال وتصاحبان جزءا من تجربة الطفل الشخصية التي يستفيد منها في مراحله المستقبلية من حياته، حين يتعرض لمواقف مشابهة"[2]،

فتصبح لديه القصة أو الحكاية مغزى ومرشد يطبقه في حياته يتبعه في النحاة والخروج من المآزق.

ومن هنا تنطلق بنا قاطرة البحث لتصرح بنا في خيال المعرفة، كما نودّ أن نصرح بخيال الطفولة، ومن خلالها نطرح الإشكاليات التالية، التي تعد ثمرة البحث والمحرك الأساسي له، وهي كالآتي:

- ما المقصود بأدب الأطفال؟ وهل بإمكان أدب الأطفال أن يوسع فكرة الطفولة؟
- وهل بإمكانه أن يصرح بعقل الطفل بعيدا من منظار المخيال ومقاربته للواقع؟
- وماهي الأبعاد الفنّية التي يحملها مخيال الطفولة من النماذج القصصية؟
- وهل بإمكان القصص الحكائية أن تنهي قدرته المعرفية، ومخياله الفني .

1) ماهية أدب الأطفال:

أ) مفهوم الأدب:

يرجع بيان المفاهيم إلى تفكيك مصطلح أدب الطفل، حيث أنه يرجع مصطلح الأدب إلى دلالات غير الاسم الصريح، ومن بين الدّلالات التي تحملها في الجاهلية في "لسان العرب" إلى المأدبة والدعوة إلى الطعام، ويقول في هذا الصدّد "طرفة بن العبد": ((نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر))(3)،

ولذا فالمعنى اللّغوي لهذا يحمل الأخلاق الحميدة.

ويصفه في مرحلة أخرى "ابن منظور" معنى الأدب: ((هو الذي يتأدب به النّاس، سُمِّيَ أَدَباً لأَنّه يَأْدِبُ النّاسَ إِلى المَحامِد، ويَنْهاهم عن المَقابِح، وأصل الأَدْبِ الدُّعاءُ، ومنه قيل للصَّنِيع يُدْعَى إليه الناسُ: مَدْعاةٌ ومَأْدُبَةٌ، ويقول فلان قد استأدب بمعنى تأدب وصار خلقه حسن))(4)، وخلاصة القول إنّ دلالتها تلوح إلى عدة معاني كالمأدبة والخلق الحسن، والفعل الجميل، والإنسان المهذّب...وغيرها هذا من جهة،

ومن جهة أخرى يعني التعبير عن انفعالات الإنسان وعواطفه وخبراته(...)، أي هو وسيلة للتعبير عن الشعور وليس ضمير (5)، وبالتالي في مجال الدراسات العربية يعني لنا الأدب أنه وسيلة من وسائل التعبير، يعبر بها الإنسان عن مشاعره وانفعالاته.

ب) أدب الطفل:

يعرف أدب الطفل "عند زكي مصطفى" بأنّه: ((فرع جديد من فروع الأدب الرفيعة، يمتلك خصائص تميّزه عن أدب الكبار رغم أنّ كلاّ منهما يمثل آثارا فنية يتحد فيها الشكل

والمضمون، وهو مجموعة الآثار الفنّية التي تصور أفكار وإحساسات ومتخيلات تتفق مع مدارك الأطفال، وتتخذ أشكال القصة والشعر والمقال دالا عنه))(6).

يعرفه "حسن شحاتة" بأنّه: ((وسيط تربوي يتيح الفرصة لهم لتحقيق الثقة بالنفس ولمعرفة الإجابة عن أسئلتهم واستفساراتهم ومحاولات الاستكشاف واستخدام الخيال وتقبل الخبرات الجديدة)) (7).

وهنا نخلص إلى أنّ أدب الطفل من حيث مفاهيمه هو يسعى إلى تحقيق الهدف من خلال هذه الإشكالية الخاصة التي تكون متنفس وملاذ، وظلّ يستظل لتفريع شحناته وطاقاته، كما أنّه يعتبر مادة علمية تثقيفية القول عموما.

أمّا مفهوم أدب الطفل الإسلامي فيعرفه "الربيعي بن سلامة"_بأنّه ((هوّ التفسير الأدبي الجميل المؤثر الصادق في إيحاءاته ودلالاته، والذي يستلهم قيم الإسلام ومبادئه وعقيدته، ويجعل منها أساسا لبناء كيان الطفل عقليا ونفسيا ووجدانيا وسلوكيا وبدنيا، ويساهم في تنمية مداركه(...) وإطلاق قدراته المختلفة وفق الأصول التربوية الإسلامية، وبذلك ينمو ويتدرج الطفل بصورة صحيحة تؤهله لأداء الرسالة المنوطة له في الأرض)) (8).

ولذلك فأدب الطفل الإسلامي له أبعاد دينية يحافظ فيها الأديب على عقيدته ومراعاة الجانب العقلي في نبذه للأعمال الخوارق التي تتنافى مع عقيدتنا مثل الأرواح التي تنفتح في الكارتون وغيرها إلى تقسيم عقلية الطفل.

II. المخيال في أدب الطفل بين الرؤية والتشكيل:

لا غرو أن الطفولة هي من أهم المراحل العمرية عند الإنسان وأعذبها، بل تعد سجل ذكريات له، فهي الوحيدة التي ترسخ في ذهنه وتصبح دفتر ذكريات يقلبها الطفل في ثنايا أوراق هذا الألبوم المليء بالمسرّات، فهي الفرس المأمول لبناء مستقبل الأمة، ومن هنا وجب رعاية هذا الطفل والمحافظة عليه، كون مستقبل الأمة يبدأ من خلال تأسيس الحجر الأوّل لبنائه، لأنّ الطفل اليوم هوّ رجل الغد.

وبما أنّ عقل الطفل عقل توّاق ومنكشف، فهو عقل ملهم للمعرفة ولا يمكن إدراكها إلا من خلال مخياله الذي يتجاوز به حدود عقله، ولا يكون هذا إلا من خلال رسم معالمه بالقصص الذي تعتبر فيه المصدر الأم هي الرؤى التي تتماشى مع روح ذهنه التي يمكنه أن يتلاءم معها، ولهذا فإن أدب الأطفال تتعدد أشكاله من حكاية وقصة...وغيرها، لذلك فبالرغم من أن ((الأدب لون من ألوان الإتصال ونقل المعاني من طرف إلى آخر، لكنه اتصال قوامه الفنّية

والتجسيد))(9)، ومن هنا نريد أن نرتقي بالطفل من خلال هذه الألوان كأن نصرّح بمخياله في فضاء الأدب من خلال القصص الفنّي التي تكون أضرب إلى ذهنية المتلقي في المرحلة الأولى.
ومن هذا المنطلق نجد أن رؤية لافونتين (Lafontaine) كانت ذات بعد فني جمالي يربط من خلالها ((العلاقة بين الرمز والمرموز إليه فيحرص على التّشابه بين الأشخاص الخيالية والحقيقية في سياق الحكاية))(10)، وهنا لكي يوسع النظرة الخاصة بمخيال الطفل لكي يقارب الواقع بجدية، ويكون للطفل فيه روح الإبحار في ثنائية الخيال والحقيقة لكي يضع النقاط على الحروف.

ومّما يمكن أن نصف به أدب الطفولة لا يختلف عن أوتار القتارة التي يعزف على أناملها الفنان المبدعCreative، الذي يحكم قواها بيده، وبين حين وآخر تتغزل أنامله الأخرى بالأوتار، إذا أنّ كلّ وتر يناسب الصولفاج الموسيقي الخاص بالنغم الخاص بها، ولهذا نجد أنّ هيكل الطفولة مثل القثارة، وأنّ كلّ من مشاعره وفكره هي أوتار يجب أن تعزف عليها.

لذلك من هذا المنطلق الرحب كان الضرب على أحد الجماليات الفنّية، التي تعزف على أوتارها، وهو خيال الطفل الذي نجده خلال تعاملنا معه، ولا يمكن أن نفهم أيّ قضية إلّا بالفيض على شعوره عن طريق المحكى، حيث أنّه يقرب له المفهوم ومنه نستخلص العبرة، ولهذا فكلٌّ من اللعب واللّغة التي يتعامل بها كلّها ناتجة عن كيان محكى مادي كالرسومات، السينما، أو ناتجة عن القصة والحكاية، ولهذا إذا أردنا أن نلج مملكة الأطفال عن طريق المحكى لننمي ذكاءهم ونقرب المفاهيم، سواء عن طريق الحكي أو عن طريق الصورة، ولهذا يبدو لنا أنّ: ((قراءة الصور ليست عملية سهلة في كلّ الأحوال، وكثير من الصور بقي الكبار أمامها الكبار حيارى لفترة غير قصيرة، لأنّ الصورة في حد ذاتها ليست الشيء ذاته، بل هي تمثيل للشيء))(11.)

فالصورة في ذاتها هي تمثل أيقونة معرفية(Cognitive icon) للطفل، وقد تغيب على مفهومه بعض الشيء أحيانا، لأنّ عقله قد لا يدرك بعض الموجودات والمنجزات، ولهذا وجب ((تقريب الصورة المقدمة للطفل بسيطة واضحة خالية من التعقيد والتفاصيل الحركية، وذلك حتّى تتناسب مع خزان الطفل ومعلوماته وقدراته))(12)، ولذلك وجب علينا محاورة هذا النوع من الناس بدقة الكلمات لكي نجعلهم يطوفون بمخيالهم في عالم الحياة المليء بفكرة الاكتشاف ومنه تصح غايتنا.

ومنه فإنّ ((تنمية القدرة الخلّاقة والمبدعة تصبح الهدف الأسمى لأيّ تثقيف))(13)، ومّما هو جلي في هذا الأدب الخاص الموجّه إلى جسد عقيم غير قادر على الإبداع، هو محاورة عقل داعي إلى الإبداعcreativity ، هو محاورة عقل داعي للإبداع، وفي محاور تناله بهذا النّمط

الأدبي هو كيفية جعله عقلا خلاقا من خلال خياله الذي يطفو فوق ضوء المتعة الفنّية، لكنه يحمل في ثناياه تجديدا علميا وفنيا، ويحمل أيقونات معرفية تحمل رسائل مشفرة، هي ما يستطيع الطفل أن يتحلى بها بمخياله، وحضور الخيال في أدب الأطفال في كل من أشكاله من قصة وحكاية، وقصص شعبي فيه مجال وممتعة وخيال"(14)، ولعلّ هذه الألوان من الأدب هي أقر بها إلى نفوسهم، وشدّ بها أنظارهم وهذا مراعاة لأفق التوقع الراسخ عندهم وكلّما تشارع في توسعة خياله لما تحمله من عنصر التّشويق وتحكم الذات والعقل والعاطفة، وهنا نرى من بعيد إلى من ينتصر الطفل في الأخير.

وكذا من خلال هذا نجد أنّ ((الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتعامل مع الأشياء التي ليس لها وجود إلا على مستوى تخييلي صرف (...) ومن هذه القدرة تتحقق الدلالة التي تفسر اللّغة، التي هي في الواقع رموز للأشياء، بعضها مادي وبعضها معنوي))(15)، وهذا ما يلعبه المخيال في حياة الطفل من جهة، ومن أدبه من جهة أخرى، فهذه المنطلقات مركز الطفل. يضع الحبكة في المقارنة بين الواقع والخيال من خلال تتبعه الخيط الذي يربط بينهما، وهنا تبدأ حلقة التفكير لديه تتوسع، وفي نفس الوقت هي توجه الطفل لمجال الإبداع الفنّي(Artistic creativity)، ويمكنه من عملية التشخيص، وهنا يجب على الكاتب مراعاة نوع القصة حتّى يحدّد من خلالها الهدف المنشود، ولذا يجب الاهتمام بالقصة الخاصة من خلال الفكرة التي ترسم الواقع بنوع من الخيال، يستحضر فيها القارئ المكان والزمان، ومنها تساعد هذا النّمط من الأطفال في ((تجسيد العوامل المثرية له أن يتخيل صورا جديدة مركبة تجعل إدراكه للمعنى أكثر دقة، وفهمه أكثر عمقا وأشعابه أشد إلماما وإحاطة))(16)، ولذلك يمكنه أن يتجاوب مع أي عمل فنّي ببعده التفكيري الّذي يستحضره في المقاربة الفنّية التي يمكن أن يسقطها مع واقعه الحقيقي الذي نشأ فيه وكبر، وبالتالي يصبح الخيال بمثابة قالب يقيس عليه أفكاره ومعطياته ومكتسباته القبلية.

لذلك يعتبر كلّ من الخيال والتّخييل عنصرين هامين في حياة الطفولة باعتبارهما نشاط عقلي تكويني وتمكيني ، يمكن للأطفال من إثبات ذواتهم وهنا يعتبر "عبد الوهاب" أنّ كل من: ((التصور والتخييل أساسي في عملية التطور المعرفي عن الأطفال، فمنه يكتسب الأطفال القدرة على التفكير المجرد مع مرور الوقت يستطيعون التميز بين الأشياء من خلال فهم معاني الواقع بإعطاء معاني جديدة يستطيع الأطفال في التفكير بطريقة جيدة))(17)، إنّ هذه الرؤية تبدو داخلية في الطرح، فالخيال عند الطفل هو محاولة لتجسيد الواقع ونقله من عالم المحسوسات

إلى عالم الموجودات ليؤرخ لنفسه تاريخا علميا، ولذا نعده أحد الطرق التي تستدعي الأطفال إلى الهروب من الواقع من جهة إلى تمثيله حتّى يساعده هذا الخيال في عملية الإبداع والابتكار.

وما ذكر في القصص التي تستحوذ على الخيال، فقد كان لأعمال جول فيرن (juls verne) مجموعة قصصية تضم كل من الخيال العلمي، تفوق الثمانين (80 قصة) تظهر فيها، وتتجلى روح الإبحار في عالم الخيال، ولعل الهدف المرجو من استحضار الخيال في أعمال المبدع هذا، هو استدراج الطفل لاكتشاف مغامرات شتى، لذلك تبدو من الأعمال الأدبية الأنسب لتعليم الطفل وإثارة خياله(18.)

يرى "سمير عبد الوهاب" أنّ: ((الأطفال المحاطون بخيالات جاهزة (...) وبصورة طبيعية يستطيعوا أن يتصوروا ويرسموا خيالاتهم من خلال معرفتهم بالأشياء المحيطة بهم))(19)، لذا فالواقع هو جزء من خيال الطفل وهنا يحاول الطفل التأقلم معها، ومنها يبني الطفل تصورات سابقة لأوانها، فهي الواقع الذي يشبه الورقة البيضاء التي يخط عليها الباحث قلمه، ولذا يكسب الطفل منها نظرية الانعكاس، بحيث كل تصرفاته في الواقع ما هي إلّا انعكاس وتجسيد لما هو في المخيال الذي عاش فيه بعقله منذ زمن الحكاية، وفي هذا نجد حسن شحاتة يؤيد هذه النظرة التي ترى بأنّ القصة هنا أكثر حيوية وتشخيصا للمواقف الحية وأكثر جاذبية للأطفال (...)، نتيجه قدرتها وتملك عقولهم، فهي تنمي لديهم القدرة على الابتكار، وتحلق في الخيال بعيدا عن محدودية الواقع (20)

نخلص إلى أنّ الخيال في ذهن الطفل له دور أساسي في توسعة ذهنه وتربيته من خلال القصص الفنّي، التي يمكنه أن يحولها من خيال إلى واقع ملموس، إذ يرى بعقله أنه يستطيع استخلاص المغزى من قصص الحيوان الذي يحتوي على عنصر التشويق، ويوجد فيها عنصر هام وجوهري يشتمل في أنها ((تعلّم الحقائق الأخلاقية في شكل مشوّق وعذب))(21).

وأخيرا وليس آخرا نجد أن الخيال والتخييل لهما دور أساسي في أدب الطفل، فهو يجري فيه مجرى الدم، ولذا نقول ما قيمة الورد حين نلمسها، ما لم تكن لهذه الزهور عبق فوّاح، وليس هدفنا تقديم أقدم بدون أن نؤدب فيها الطفل، حتّى يكون الهدف منها تربويا وتعليميا، رغم أنه عمل فنّيٌ أن تنمي فيه عقل الطفل، فنربي فيه عقله، كما نربيه هو في حدّ ذاته لكي تتوسع معارفه وتكبر طموحاته، ويصبح المخيال في ذاكرة الطفل كتابا ثانيا، يتصفحه الطفل فيه روايته، ويدركها من خلال تصوره للموجودات في واقع كان تنحت فيه من المحسوس.

III. المخيال الفنّي والبعد الحكائي:

يبدو أنّ الحكاية لها دور المسرح في منحنا مسرح يتيح المرح لنا شعبا مثقفا، وفيه تحكى حكاية للأطفال، فإنّنا نستثمر في عقل البشر لتوسيع خيالهم الأدبي والعلمي والفنّي، ومنحهم دروسا وعبرا، ولذلك فإنّ ((الحكماء جُعلت الحكمة في ضمن الأخبار وعلى ألسنة الحيوانات، وفي أثناء الحكايات لتخفف عن القلوب، وتهش إليها الأسماء (...) وزخرفوها بالصور المونقة، والأصباغ الرائعة، استجماما لنفوس الحكماء عند الملل، وترويحا لقلوب العلماء عند الضجر))(22) . ومن هنا رغم البعد الترفيهي يراها العلماء أنّها تحتوي على العنصر التنفيسي، وتحمل في ثناياها الحكمة البالغة، وهذا ما أيده وذكره كذلك المفكر الغربي (هانز أندرسون) Hans Anderson (23)، رغم الظهور الذي ادّعاه الغرب في هذا المجال، إلّا وكانت العرب قد سبقت به الغرب، لكن السؤال المطروح: لماذا هذا التأخر في هذا المجال رغم طرقهم كل الأبواب والعلوم؟ .

وبما أنّ هذا المجال العلمي هو محل اهتمام الباحثين للتعالي والارتقاء بذهنية الطفل ومخياله المعرفي، يؤكد هذا "محمد غنيمي هلال" بأنّ :((موضوع هذا البحث أكاديمي طريق تقاطعت فيه مجموعة من الجهود الفنّية في عديد من الثقافات واللغات))(24)، ولهذا يعتبر علماء النفس والتربية أنّ القصة أكثر الطرق التعليمية ملاءمة وأدقها انسجاما وأبعدها أثرا في نفسية الطفل وقدراته الإدراكية لتغذيته بالثقافة والعلوم(...)، وفي تلقي الأطفال تترك فيهم الأثر الكبير في نفسية الطفل وثقافته، تنسجم القصة مع نفسية الطفل الخيالية، إذا يعتبر الخيال جزءا هاما من حياته التي تقوم على أساس من الإيهام في سنواته الأولى، ثم يتحول إلى التخييل الإبداعي أو ما يطلق عليه بالتخييل التركيبي، فتصبح القدرة الخيالية مصدر من مصادر إشباع رغبته في المعرفة ودافع للإطلاع والكشف عن أشياء لم يعرفها، وهنا يصبح الإبداع ناتج عن الخيال المعرفي الذي يتربى مع الطفل منذ السنين الأولى، لذا يجب علينا التعامل بحرفية عالية في محاولة تثقيف للطفل، وهذا بداية من مراعاة السيكولوجية(Psychological) الخاصة به.

من هذا المنطلق يرى "الربيعي بن سلامة" ((أنّ المرء إذا أراد أن يخاطب صبيا بما يقبله ويسرّ به، تصابى له في حديثه (...)، لأنّ الشكل للشكل آلف، والمثال للمثل قابل، والضدّ للضدّ نافر))(25)، من ذلك وجب علينا مراعاة عقل الطفل وتقلبه لهذه الألوان الأدبية، وهنا تتوافق مع طرحته "قتادى هدى" في ذكرها للقصص باعتباره لون من ألوان الإبداع الفنّي، ينبغي على القاصر مراعاته26، لأنّهم يتحاربون معها بجانب من الترفيه أكثر من أي شيء آخر، ولهذ على الكاتب استحضار المخيال في أدبية خطابه، كي ننقل ما هو محسوس في ذهنية الطفل إلى

الملموسات، وهنا نجسد قال المخيال في ذهنية المتلقي، ويصبح الطفل ليكمل هذه الفراغات باعتباره جزءا فعالا، فهنا تمنح له حيوية الاصطياد الناجمة عن تجربة المخيال، ولعلنا نجد الهدف من دراسة الحكايات، فقد تبدوا دراسة درويش على حكايات لافونتين فيما ذكر في الكتاب الثالث في قصة الطحان وابنه الحمار، هي تعكس ملهاة رائعة يستشف منها القارئ (الطفل) درسا بليغا في الأخلاق27، فبعد هذه القصة يعرف الطفل مدى القيمة الخلفية التي يتميز بها الإنسان.

وأمّا في الكتاب الرابع، فيعالج فيه لافونتين (Lafontaine) قصة العجوز وأبناؤه، حيث اعتبر أنّ القوة تعتبر ضعفا بدون الاتحاد، ولقد كانت قصة الصفدع، جسّدت ذلك حينما أرادت أن تلتهم فأرا بخدعه استدراجه ليلتهمه في الماء، في هذا المقام ظهرت حدأة فالتهمتهما معا(28)، ولذا فالعود سهل كسره حينما ينفرد عن الكومة من الحطب، وهذا المنال يضرب بقوة في مجتمعاتنا التي دعت النّاس على التجمع والتآخي والتوحد.

وما يضاف لهذا حضور المخيال في النص الشعري في قصة "الثعلب والديك" عند أحمد شوقي، فنجده يقول:

بَرَزَ الثعْلَبُ يـــومـــــاً ... في شِعار الواعِظيـــــنا
فَمَشَى في الأرضِ يَهْـــدي ... ويَسُبُّ الماكريـــــــنا
ويقـــــول: الحَـــمْـدُ لله ... إلَـــه العـالَمينـــــــا
يا عـِباد الله تـــوبـــــوا ... فَهو كَهْـف ٍ التائبيـــنا
وازهَدوا فـــي الطَيْـر إن الـ ... ـعَيْش عَيْشُ الزاهـدينا
واطْلُبوا الديـــــك يـــؤذن ... لصَلاة الصُبْـح فيـــنا
فأتَى الديـــك ِ رَسُـــــولٌ ... مِن إمام الناســكيـــنا
عـــرَضَ الأمـــــرَ عَلَيْـــــهِ ... وهو يَرجو أن يَليـــــنا
فأجاب الديـــــكُ عـــُذْراً ... يا أضَـــــل المهْتَديـنا
بَلّغ الثَـعْلَبَ عَني عَـــنْ ... جُدودي الصالحيـــــنا
عن ذَوي التـِيجـان مِمَّـن ... دَخَلَ البَطْنَ اللعيـــنا
إنهـــم قـالـــــوا وخَيْرُ الـ ... ـقَوْلِ قَوْلُ العـارفيـــــنا
مُخْطِئ مَنْ ظَنّ يَومـــــاً ... أنَ لِلثَعـــْلَبِ ديـــنا29

ما يلاحظ في هذا النّص الشعري أنّ الثعلب أصبح تائبا متمسكا بالدين، وقد دار الحوار بين الثعلب ورسوله، كما دار بين الرسول والديك، فهنا يصور للطفل أنّ الحيوان الذي كان ماكرا وحاذقا أصبح اليوم مفيدا وزاهدا في أمور الدين والدنيا، ودعى في هذا النّص الشعري إلى الزهد في الطير، وكلّ هذا له هدف بالنسبة للثعلب هو الوصول إلى هدفه في تربصه بالديك الذي يعتبر مؤذنا وداعيا الناس إلى الصلاة، في حين دعوة الثعلب للديك إلى الصلاة، كان بجانبه (السلوقي) نائم، قال له الديك انتظر حتّى ينهض الإمام.

ما يستشف من القصة هو توسعة مخيال الطفل من حيث الدعوة إلى الصلاة بكل طقوسها من آذان وتأدية هي هدف يراد الوصول إليه من الثعلب وهو التسلح بالدين (النفاق) ولكن الخدعة هنا كانت ملفقة بالصلاة ، ليستشف الطفل من عالم الحيوان أنّ الغدر يكون بالتظاهر بالدين، هو أقرب شيء لأنّ الدين يضمن الأمان للإنسان.

كما يوجد البعد الترفيهي الذي شيد نظرة الطفل من خلال هذه القصة الترفيهية التي تعتبر متنفس له يتعامل فيها مع ألسنة الحيوانات، وذكر طباعهم.

وهنا يتجسد المخيال ويتوسع في نظر الطفل، حيث يعرف معنى المكر والخداع والزهد والرغبة والاحتيال، ويمكن لهذه الأمور أنّ تتجسد في شخصية الإمام كما جسدها الثعلب بأنّه إمام الواعظينا.

لكن يقابلها ذكاء الديك، حيث استفاد من التجارب السابقة ولم ينخدع ونجا، وهذه تمثل شخصية الإنسان السويّ الذي يحتكم لخبراته الشخصية، وهنا في هذا النّص برزت جميع الصفات في كلتا الشخصيتين بطريقة غير مباشرة عن طريق تصوير الأمور الحسية الكاشفة عن هذه الشخصيات المعنوية، فالثعلب يبرز أو يمشي، يهدي، يتوب، والديك يجيب ويبلع ويزدن(30)، وكلتا الطباع موجودة في بني الإنسان، ولهذا وجب على الطفل تحليل هذه الشخصيات ليأخذ منها العبرة، أن يعرف قيمة الشخص الذي ينصحه أو يخدعه، كما يجب عليه استثمار التجارب التي رآها بأم عينه، أو التي منحها له والداه حتّى تكون سلاح الطفل التجربة.

إنّ القصص الحيواني يأسر قلب الأطفال لما فيه من جماليات فنية، ولهذا نجد أن الكاتب لافونتين (Lafontaine) يسعى إلى هذا النوع من القصص الحيواني ليربط العلاقة بين الرمز والمرموز إليه، لذا فهو يحرص على التشابه بين الأشخاص الخيالية والمهيمنة في سياق

الحكاية31، وكأنه يريد بالأطفال أن يقوموا بعملية الإسقاط الفنّي الّذي تتصف به بعض الحيوانات حتّى يتعلم منها دروسا وعبرا.

وما ذكره "ابن الجوزي" في كتابه "الأذكياء" الذي يحكي فيه قصصا على ألسنة الحيوانات يقول: يُحكى أنّ أسدا وذئبا وثعلبا يوما ما اصطحبوا وذهبوا للصيد، فكان سعيهم في الصيد حمارا وحشيا وغزالا وأرنبا، عندها قال الأسد: من يقسم الغلّة بيننا، فتقدم الذئب وقال: يا سيدي الأسد فالحمار الوحشي لك، والغزال لي، والأرنب للثعلب، فبعدما أكمل القسمة ضربه الأسد حتّى طار منه مخّه ولصق بعرض الحائط، وبعدها أمر الثعلب بأن يقسم الغلة أو(السعي) فقالت: يا سيدي الأسد فالحمار الوحشي غذاءك، والغزال عشاءك والأرنب خلّل به أسنانك، فضحك الأسد "ها..ها..ها.." من أين تعلمت هذه القسمة، فقالت تعلمتها من مخ الذئب لما لصق بأرض الحائط 32 .

إنّ ما يستشفه القارئ (الطفل) من هذه القصّة عدّة أشياء، وهي كلّها ستساهم في اتّساع مخياله الفنّي والأدبي والعلمي هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى تؤدي عدّة وظائف لدى مخيلةالطفل.

الوظيفة الإمتاعية الفنّية:

وهذه الوظيفة ناتجة عن التّمتع بالقصص الحيواني، وفي هذه القصة نلاحظ أنّ الكاتب لم يتجاهل خيال الأطفال بل هو حاضر بقوة، وهنا تتجلى القمة الإبداعية.

كما في هذه الوظيفة تحاول مداعبة نفسية من خلال عملية الضحك بتوظيف شخصيات تتراوح قيمتها من القوة والجملة وهنا يستحضر الجواب والسؤال معا.

الوظيفة الإبلاغية النفعية:

مّما يبدو لنا في هذه القصص أنّها تقدم منفعة للطفل، أي يعرف كيف بتصرف في حياته أمام من هو أكبر منه قوة أو علما، ولذا وجب عليه الانتفاع أي أخذ المنفعة في الحيطة والحذر في جميع مجالات حياته .

وما يستشف من هذه القصص التي ذكرنا منه (03) حيوانات مختلفة الضباع إلا وأن لها أبعاد.

بعد علمي : هنا نتعلم القول من تجارب غيره وما حققته بنتائجهم كما هو الحال عند الثعلب.

-**بعد أخلاقي**: معرفة الطباع التي تكون في الإنسان تعرف عند السفر والصيد وسوف يعكس الإنسان عن طباعه، كما يتعلم الطفل من قصص الحيوانات عدم التسرع في الأشياء في حياته.

- **بعد فنّي** : تتمثل في إختيار القصص ذات البعد الجمالي والتي تحتوي على التشبيه والاستعارة، هنا يقوم بمحاولة الإسقاط.

- **بعد ترفيهي**: وهذا يراعي فيه الكاتب الضحك، لكن يكون ممنول بمغزى تقديمه للطفل على طبق من ذهب يستحضر فيها الحيوانات لكن يأخذ العبرة.

- **بعد واقعي (علمي)**: يتعلم من خلالها الطفل الحوار حتّى يعرف ما الشيء المقصود من مقصدية الآخر، حيث أن القوة تتغلب على المكر والخذاع، والحيلة تتغلب على القوة، كما أن للحيلة مراوغة للمكر، والمخطط التالي يوضح ذلك:

<table>
<tr><td>السلطان يجرب أصحابه</td><td>فوق العقل تمثل المخيـــال</td></tr>
<tr><td></td><td> 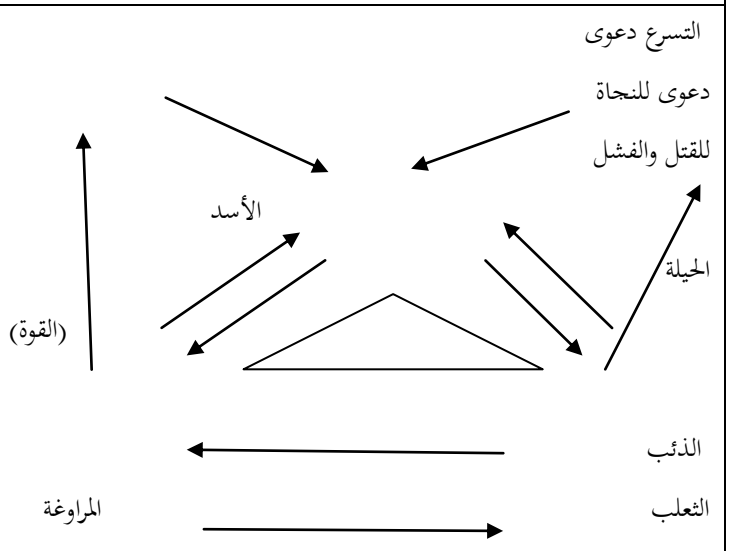
</td></tr>
<tr><td>العبرة عدم التسرع في ظلّ من هو أعلم وأقوى منك</td><td>العقل يمثل الواقع الذي يقوم به الطفل عند عملية الإسقاط</td></tr>
</table>

***- مخطط يوضح أبعاد العلاقات الثلاثية للمخيال الفني الحكائي بين الحيوانات .**

إن ما يجسده الكاتب في هذه الحكاية هي الدعوة إلى استعمال الذكاء مع من هو أقوى، وأمام من هو حاكم، لأن التسرع دعوى للقتل والفشل، والحيلة مدعاة للنجاة والإستفادة من تجارب الآخرين، وهنا يصبح خيال الطفل ذو موسوعية يستطيع تطبيقه في الواقع، ولهذا الأيقونات المعرفية في الحكاية هي وسيلة للتوسع والنمو بذكاء الطفل والارتقاء به، ولهذا للحكاية دور فعّال في إنماء ذهنية الطفل الدافعة إلى التساؤل والاكتشاف وحب المعرفة.

❖ **التجسيد الفنّي:**

يتعلق التّجسيد الفنّي في النّظام القصصي والحكائي كونه يستحضر الخيال بطريقة الرمز اللّغوي الّذي تعتبر فيه اللّغة رمزا من رموز الخيال لدى لغة الطفل، وتختلف مجالات الخيال باختلاف ذهنية الأطفال، ولكن ما نريده نحن في هذا الخيال هو التصور الذهني الذي يدركه من عالم اللّا واقع، حيث يصبح للطفل قراءة تتعامل مع النسق الحكائي، الذي يضمره الكاتب وهو يربط الحكاية أو القصة بالواقع.

إنّ ما يحتويه التّجسيد الفنّي الحكائي من إشعارات وكلمات تتنافى مع لغته يجعل الطفل ينمو بعقله، وتصبح له ذاكرة قويّة قادرة على الابتكار والاكتشاف، وكلّ هذا سيمدّه الطفل من واقعه المادي ليحاول أن ينقل هذه الخبرات اللّامادية إلى الواقع المادي. ولذلك فالقصة التي تتلاءم مع التطور الذهني لهذه المرحلة من القصة ذات الحدث البسيط البعيد عن التركيب وتعقيد العلاقات الفنّية، لذا ففي قصة (الكلب والحمامة) عند "أحمد شوقي" يتعلم الطفل معنى رد الجميل، فرد الجميل خلق يتجلى به الطفل فينقله الطفل من عالم الحيوانات إلى (عالمه) عالم الإنسانية، حيث أنّ القصة :

أولا: تحتوي على عمل إنساني عندما أيقظت (الحمامة الكلب) من مواجهة الثعبان له هنا أنقذت حياته،

وأما الثانية: تتمثل في رد الكلب الجميل لها، عندما رأى الصياد قادما إليها، فهنا تتجلى الفكرة الأخلاقية33.

وبغية هذا فإنّ التّجسيد الفنّي يؤدي إلى إثراء الجانب الفكري للطفل موسعا ذلك معرفته سواءً ما تعلق بالصور والألوان (غير اللّغوية)، وأمّا يتعلق بالقصد التي توضح الجانب اللّغوي والفنّي له، ولهذا يمكنه من تفكيك الأيقونة Icon في أي حكاية أو قصة مقدمة له هذا الاهتمام كلّه يعتبر في نظري أحد المعايير التي توسع مجال مخياله المعرفي، وهي إحدى الطرق الداعية للاكتشاف والابتكار والمعرفة والبحث عن المجهول عن طريق محاكاة الخيال.

❖ **البعد التربوي** :

إنّ الهدف الأسمى من كل هذا هو تربية الطفل وتقويمه وتحسين أخلاقه، ولهذا فإنّ:((أدب الأطفال ليس عملا تربويا فحسب، ولكنه عمل فني أيضا (...) وكم نشفق على الملايين من أطفالنا لأنّهم لا يجدون إلّا القليل من الأعمال التربوية، ولا يكادون يجدون شيئا على الإطلاق من الأعمال الفنّية))(34).

ومن هذا الباب وجب علينا أن نعي ما نقدمه للطفل، فذكر البطولات والقصص الخاص بالأنبياء والرسل وذكر مناقب الخلفاء الراشدين والصحابة[35]، ومع التعريج على سيرهم الذاتية سوف نأخذ منهم العبر والعظات في هذا الباب، ومن هذا تلين أخلاقه وتربيته وتقويمه على سير الأولين، ونكون بذلك قد حققنا المراد من هذه القصص المقدمة للطفل رغم صغر سنه، وحتّى يكون الأطفال على اطّلاع على ما يجري من مآثر غيرهم حتّى تكون لنا ولغيرنا قدوة حسنة نقتدي بها.

❖ **البعد الترفيهي**:

يبدو لي أن هذا البعد الترفيهي هو البعد الأخّاذ والجذاب في الوقت نفسه، لأنّ الطفل يتتبعه بشغف ويشدّ انتباهه لما فيه من المرح والضحك، وهذا بدوره متنفس علمي وتعليمي وتربوي، لكونه يحتضن الحكاية ويحاول هضمها معرفيا مراعيا الحبكة والحل، وهذا هو الهدف الذي نصبوا إليه، حيث يبدو لنا في ما تنقله هذه الحكايات رغم أنّها ذات حكايات هزلية، إلّا أنّها تحمل فائدة عظيمة له. وبالتالي فهذه الحكايات تحمل أبعادا عدة وفواد جمّة، نذكر منها:

- تشبع فيهم رغبات إنسانية وتملأ حياتهم بالمرح والانشراح.
- تنمي فيهم ثروتهم اللّغوية.
- تمنحهم مجالا خصبا للضحك .
- تغرس فيهم مثلا ومبادئ أخلاقية.
- تنبه أذهانهم وتدفعهم إلى التفكير36

إنّ هذه الخصائص الخمسة المذكورة هي تسعى لتنمية مخيال الطفل وتصبح الحكاية معلما ثانيا سواء بالرمز أو باللّغة في مسخ عقليته وتوسع ذهنه، ومن خلالها يستنبط الطفل آليات التفكير بطريقة جيّدة مهذبة مبنية على مجال المخيال الفنّي، الّذي يجسّد عالم الطفولة في القصص الشعبي أو الفصيح.

❖ **خاتمة:**

يتبين لنا مّما سبق ذكره والتطرق إليه في مجال المخيال الفنّي لدى أدب الطفل، من أنّ المخيال له دور هام وفعال في نمو ذكاء الطفل والارتقاء به قدما، ولذلك فقد خرجنا بهذه النتائج لعلّها تكون عصارة هذا البحث، والتي سنحاول سردها كالآتي:

- عالم الطفولة عالم غريب، ولهذا وجب تبسيط الأدب الخاص بالطفل حتّى تمنحه سلطة التعامل والغربلة.

- وجوب استحضار القصص الحيواني لشدّ عقله وشحذ ذهنيته ومنحه الحبكة والحل .

- محاولة استعمال الرمز في القصص؛ والمرموز لها في الواقع حتّى تكون المقاربة تمسّ الشكل والمضمون .

- وجوب ضرب أمثلة حتّى يمكننا توسيع المجال له، وبهذا يصبح عن الحل في المسائل المعقدة

- منح الطفل قصص وحكايات تتعامل مع ما يدور به في محيطه حتّى يستطيع تجسيد الخيال في الواقع.

- القصص الحيواني يمنح الطفل خصائصها وطباعها لمعرفة ما يمتاز به كل حيوان .

- وجوب البعد عن التعقيد الفنّي أو الحكائي، ولذا وجب مراعاة ذهنيته ومدى تقبّله لحكاية ذات الأبعاد الفنّية التي تجسد المخيال في خلفيتها اللّامرئية ..

- مراعاة عملية الإبداع التي تتنافى مع عقيدة الطفل حتّى لا يكون الطفل أجرء على ما هو موقوف في التأصيل.

- إشعار الطفل بالمتعة والهزل واللّعب والبهجة، واستعمال جانب التّشويق لبقائه دائما يبحث عن تكملة الجزء المخيل في ذهنيته.

- ذكر قصص وحكايات تحمل قيما وأبعاد أخلاقية دينية تربوية تعليمية أدبية وفنية يوسع مدارك خياله.

الإحالات:

(1) سعد أبو الرّضا، النّص الأدبي للأطفال أهدافه ومصادره وسماته، وؤية إسلامية، ط:1، 2005م مكتبة العبيكان، الرياض، ص:19.

(2)- عبد الفتاح أبو معال، أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتثقيفهم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2005 ، ص136 .

(3)- ابن منظور جمال الدين. لسان العرب، ص43، مادة: أدب

(4)- نفس المرجع السابق، ص43.

(5)- كمال الدين حسن، مقدمة في أدب الطفل، كلية رياض الأطفال، جامعة القاهرة، 2002، د.ط، ص11.

(6)- المرجع نفسه، ص11

(7)- حسن شحاتة، أدب الأطفال دراسات وبحوث، الدار العربية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1991م، ص05.

(8) - الربيعي بن سلامة، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، دار مداد يونيفار سيتي براس، قسنطينة-الجزائر، ط1، 2009ص12،

(9)-المرجع السابق، النّص الأدبي للأطفال أهدافه ومصادره وسماته. ص: 19.

(10)- المرجع نفسه، ص: 190 .

(11)- المرجع السابق، الربيعي بن سلامة، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، ص16.

(12)- ينظر، المرجع نفسه، ص16

(13)- حسن شحاتة، مشكلات أدب الأطفال تر: مها عرنوق. منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1997، ص26.

(14)- ينظر، ، ص131.

(15)- المرجع السابق، أنس داود، أدب الأطفال في البدء ...كانت أنشودة.دار المعارف-مصر،دط؛1993، ص:.93

(16)- النّص الأدبي للأطفال، ص22

(17)- سمير عبد الوهاب أحمد. أدب الأطفال- قراءة نظرية ونماذج تطبيقي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان،ط01؛2006،ص130

(18)- ينظر، المرجع نفسه، ص:130.

(19)- المرجع نفسه، ص130

(20)- المرجع السابق، حسن شحاتة، قراءات الأطفال، الدار المصرية اللبنانية –القاهرة، ط2، 1992، ص55

(21)- الحديدي علي، في أدب الطفل ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1976، ص178

(22)- المرجع السابق، الربيعي بن سلامة، من أدب الأطفال في الجزائر. ص37،

(23)- ينظر المرجع نفسه، ص37

(24)- ينظر، المرجع نفسه، ص34

(25)- المرجع نفسه ، ص37

(26)- ينظر، قتادى هدى. أدب الأطفال، مركز التنمية البشرية والمعلومات، مصر، ط1، 1990م، ص135.

(27)- ينظر المرجع نفسه، ص31

(28)- ينظر، المرجع نفسه، ص31.

(29)- المرجع السابق، ص213/212

(30)- ينظر، المرجع السابق، ص215-216

(31)- ينظر، المرجع السابق، أنس داود، أدب الأطفال، ص190

(32)- ينظر، ابن الجوزي عبد الرحمان، الأذكياء، موقع الفرزدق، http /www.alvarazdac.com ، ص: 115.

(33)- المرجع السابق، سعد أبو الرضا. النّص الأدبي للأطفال أهدافه ومصادره وسماته، ص22-23

(34)- المرجع نفسه، ، ص13

(35)- ينظر، إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الأدب الإسلامي للأطفال، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1997م، ص29

(36)- ينظر، هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، د,ط:1988، ص165.

قائمة المصادر والمراجع :

1) إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الأدب الإسلامي للأطفال، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1997م.
2) أنس داود، أدب الأطفال في البدء ...كانت أنشودة.دار المعارف-مصر،دط:1993.
3) ابن الجوزي عبد الرحمان، الأذكياء، موقع الفرزدق،دط؛ دت، http /www.alvarazdac.com ،
4) الحديدي علي، في أدب الطفل ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1976،
5) حسن شحاتة، أدب الأطفال دراسات وبحوث، الدار العربية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1991م
6) حسن شحاتة، قراءات الأطفال، الدار المصرية اللبنانية –القاهرة، ط2، 1992،
7) حسن شحاتة، مشكلات أدب الأطفال تر: مها عرنوق. منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1997،
8) الربيعي بن سلامة، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، دار مداد يونيفار سيتي براس، قسنطينة-الجزائر، ط1، 2009.
9) سعد أبو الرضا. النّص الأدبي للأطفال أهدافه ومصادره وسماته، رؤية إسلامية، ط1، 2005م، مكتبة العبيكان، الرياض،
10) سمير عبد الوهاب أحمد. أدب الأطفال- قراءة نظرية ونماذج تطبيقي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان،ط01:2006.

11) عبد الفتاح أبو معال، أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتثقيفهم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 2005.

12) قتادى هدى. أدب الأطفال، مركز التنمية البشرية والمعلومات، مصر، ط1، 1990م،

13) ابن منظور جمال الدين. لسان العرب، ص43، مادة: أدب.

14) هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، د,ط؛1988،